مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

أقدم تدوين في الحديث النبوي

صحيفة همّام بن منبّه

(المؤلفة قبل سنة ٥٨ للهجرة)

نشرها وقدم لها وعلق عليها

الدكتور محمد حميد الله

دمشق

١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لا يعرف قدر الشيء إلا مالكه . وغير المسلمين لا يقدرون الحديث النبوي وما يتعلق به من أصول الرواية والدراية حق قدره . لأنهم لم يعنوا بأحاديث أنبيائهم كما عني المسلمون بحديث نبيهم . لذلك كان أكبر همهم عدم العناية بالحديث الاسلامي والطعن في صحته إما جهلاً وإما حسداً .

وليس عجباً أن العرب لم يعتنوا في جاهليتهم بالتدوين والكتابة بخلاف عنايتهم بها بعد أن أسلموا وآمنوا بالله وحده ؛ ولكن الذي يدعو الى العجب أن الأمد الذي انقضى بين جاهليتهم وبين اعتنائهم بأصناف العلوم كان من أقصر ما عرفه التأريخ الإنساني لمثل هذا التطور السريع ، حتى إن ذلك ليدهش المؤرخ . فلم يكن في مكة ، لما بعث النبي ﷺ إلا بضعة عشر رجلاً يقرأون ويكتبون . وعددهم في المدينة المنورة أقل من ذلك . وصارت العربية من أغزر لغات العالم علماً وأدباً منذ القرن الثاني للهجرة . فكيف كان هذا ؟

بدأت الحكومة الإسلامية في السنة الأولى للهجرة ولم تشمل حينئذ إلا جزءاً من المدينة المنورة ؛ أما سائرها فكان في أيدي اليهود أو العرب المشركين . وكان في جزيرة العرب مئات من القبائل ، أي مئات من «الدول المستقلة» لا تخضع واحدة لأخرى . ولم تشتمل الحكومة الإسلامية قبل هدنة الحديبية في أواخر السنة السادسة للهجرة إلا على بضع مئات من الأميال المربعة من الأرض . ولكن هذه الدولة الإسلامية كانت قد امتدت عند وفاة النبي ﷺ ، بعد خمس سنوات ، الى مساحة تنيف على مليون من الأميال . وما انقضت بعد ذلك

خمس عشرة سنة حتى دخل الجند الاسلامي في خلافة سيدنا عثمان (سنة ٢٦ هـ) الأندلسَ من جهة على ما روى الطبري [١] ، بعد أن أخضعوا جميع شمالي إفريقية ، وتجاوز جيحون الى ما وراء النهر من جهة ثانية [٢] ؛ أما في الجنوب فقد بلغت هذه الجنود ، منذ خلافة سيدنا عمر الفاروق على ما روى البلاذري [٣] ، موانئ تانه (بباي) ودَيبل (كراتشي) ، وفي الشمال أرمينية وما وراءها [٤] .

ولم يكن عند العرب حينئذ عدد ولا عدّة كما كان عند من ناوشوهم من الروم والفرس وسائر العجم . وكذلك لم يعرفوا فنون الحرب والقتال المعروفة عند أعدائهم . وفوق هذا كله ، لم يخرجوا من بيوتهم وأخبيتهم لمجرد النهب والغارات الجاهلية ، بل لتكون كلمة الله هي العليا . فعاداتهم الطبيعية وتربيتهم الإسلامية هي التي ساعدتهم على الوصول إلى غايتهم . ففتوحات السيف وفتوحات القلم ليست لديهم إلا مظهر أمر واحد وداعٍ واحد .

ولسنا بصدد الكلام على سياسة السيف وكيفية نشأتها وارتقائها ؛ فلنقصر الكلام على سياسة القلم والعلم في فجر الاسلام .

اهتمام النبي بنشر التعليم

من المعروف أن نبي الإسلام كان أُمياً ، وقد شهد بذلك القرآن فقال : « ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » . وأول وحي أوحي اليه اشتمل على أمر الله أن : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من عَلَق . اقرأ

(١) تاريخ الطبري ، ص ٢٨١٧ وما بعد (طبع اوربا) .
(٢) فتوح البلدان للبلاذري (طبع اوربا) ص ٤٠٨ ، ووافقه تواريخ أهل الصين .
(٣) فتوح البلدان ص ٣٤٨ .
(٤) تاريخ الطبري ، (في السنة ١٩) .

وربك الأكرم الذي علّم بالقلم . علّم الانسان ما لم يعلم» . فالأمر بالقراءة وتمجيد أوصاف القلم والكتابة ، هذا ما شرع به الاسلام لمتبعيه . فكان سيدنا محمد «في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» ، فينوّر أذهانهم كما يصفي أخلاقهم في الوقت نفسه . وكذلك كان يأمر بكتابة آيات القرآن وسوره المنزلة الى ذلك الزمان .

فلم يسمعه إلا قليل من أهل بلده ، وبدأوا يؤذونه ومن تبعه في الله . فلما بلغ سيل المحن الزبى ، هاجر مع من استطاع الى المدينة ووضع هناك أساس دولة . فنزلت سورة البقرة في أول ما نزل بعد الهجرة ، ونزل فيها آية المداينة المعروفة :

«يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَين الى أجل مسمى فاكتبوه ... واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ... ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألاّ ترتابوا» الآية .

فلم يزد إلا اعتناء بالكتابة والعلم .

وأول ما بدأ به الرسول من العمل كان بناء المسجد النبوي وجعل في هذا المسجد صُفّة ليقيم فيها طلاب العلم . وعين أساتذة يعلّمون فيها الكتابة والقراءة ومسائل الدين الى غير ذلك . فكان عبد الله بن سعيد بن العاص يعلمهم الخط [1] . وكذلك روي عن سيدنا عبادة بن الصامت أنه أمره النبي ﷺ أن يعلم الناس الكتابة ويقرئهم القرآن في الصفة [2] .

ولم يمض على ذلك سنة حتى كانت وقعة بدر : زاد عدد العدو فيها ثلاثة أضعاف عدد المسلمين ، وأسروا عدداً كثيراً منهم . ومن غريب ما عومل به

---

(١) استيعاب ابن عبد البر ٣٩٣ ، التراتيب الادارية للكتاني ٤٨/١ . وقال : «وكان كاتباً محسناً» . راجع أيضاً الاصابة ترجمة الحكم بن سعيد بن العاص .
(٢) الكتاني ٤٨/١ عن سنن أبي داود .

الأسرى أنه أذن لمن كان منهم كاتباً ان يعلم كل واحد منهم عشرةً من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة ، فداء لنفسه [١] وقد بوّب بعض قدماء المحدّثين هذه الواقعة فعنونها « جواز المعلم المشرك » . وحُقّ له . ولم يكن هذا حادث حدث ، بل كان مطابقاً لسياسة مستمرة في نشر التعليم . وكثيراً ما كان يقول النبي « بعثت معلماً » [٢] . وكان يأمر الصبيان أن يتعلموا من جيرانهم [٣] وان يتدارسوا في مسجد حارتهم [٤] . وذكر البلاذري [٥] « أنه كان بالمدينة تسعة مساجد فكانوا يصلون فيها ويجمعون مع رسول الله » . ويروى أن أهل جُواثا (في منطقة عُمان والبحرين) بنوا مسجداً فكان أول مسجد بعد ما كان في المدينة . وكان قد كتب اليهم أن « خطوا المساجد كذا وكذا وإلا غزوتكم » [٦] . وكذلك لما بعث عمرو بن حزم رضي الله عنه عاملاً الى اليمن ، كتب له أوامره وفيها أوامر لنشر التعليم [٧] . وذكر الطبري [٨] في أحوال سنة ١١ أن النبي ﷺ كان قد بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه الى اليمن ناظراً للتعليم فكان يتنقل من عمالة الى عمالة ويراقب المدارس .

ولم يكتف بتعليم الرجال ، بل اعتنى بالنساء كما اعتنى بالرجال . فأمّ المؤمنين حفصة بنت عمر كانت كاتبة في حياة النبي على ما رواه ابو داود . ولا نحتاج الى تفصيل طويل لهذه الناحية سوى أنه كان من نتائج هذه السياسة في شأن تعليم

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٢ ، ص ٤ ، روض الأنف للسهيلي ٩٢/٢ ، مسند ابن حنبل ٢٤٧/١ .
(٢) ابن ماجة ، باب فضل العلماء : مختصر بيان العلم لابن عبد البر ، ص ١٥ .
(٣) الكتاني ٤١/١ عن الاصابة ومجم الزوائد .
(٤) ابن عبد البر ، ص ١٤ .
(٥) أنساب الأشراف (مخطوطة القاهرة) ٤٢٠/١ .
(٦) راجع كتابي الوثائق السياسية رقم ٧٧ .
(٧) الوثائق السياسية ، رقم ١٠٥ ، عن ابن هشام والطبري .
(٨) تاريخ الطبري طبع (اوربا) ص ١٨٥٢ — ١٨٥٣ ، ١٩٨٣ .

النساء أن المسلمات أصبحن فيما بعد يبارين الرجال في ميادين شتى من العلم . ويرى القارئ أن بين السماعات التي توجد على المخطوطة الدمشقية من صحيفة همام ابن منبه ، التي نحن بصددها ، سماعاً على معلمة وهي ام الفضل كريمة بنت ابي الفراس نجم الدين القرشية الزبيرية بمنزلها . وكذلك كتاب الأموال لأبي عبيد ، الذي هو في الأمور المالية الدقيقة من موارد الدولة ومصارفها ، يبتدئ بعد البسملة ، بهذه الكلمات : « قرئ على الشيخة الصالحة الكاتبة فخر النساء شهدة بنت أبي نصر احمد بن الفرج بن عمر الإبري الدينوري بمنزلها ببغداد » . ولا نحتاج للقرون الابتدائية إلا أن نرجع الى أسانيد الرواة من كتب الحديث للصحابيات والتابعيات ومن تبعهن .

تدوين الحديث

فهذه نماذج من أثر السياسة النبوية في أمر العلم عامة . أما الحديث فهو ما يهمنا خاصة . ومرادي بالحديث حديث الرسول ، وهو يحتوي على أقواله كما يحتوي على ذكر ما فعله بنفسه او قرر ما فعله غيره من أصحابه فلم ينهه . فهذا التقرير والتصديق ، له مكانة قانونية ، كأنه فعله الذي قرّره .

والأمر الوحيد الذي يشغلنا ههنا هو مسألة الثقة بكتب الحديث ، لا غير . فان الكتاب الذي ننشره اليوم ، أعني صحيفة همام بن منبه ، هو أيضاً تأليف جمع فيه أحاديث النبي ﷺ .

من المستحيل البديهي أن يكتب ويدوّن جميع ما قال النبي أو فعله أو قرره ، فهذا من وظائف الملائك « كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » . وكذلك ان يصح القول أنهم لم يكتبوا شيئاً ، فان الحقائق على خلافه . وعلى كل حال ما دونته هذه الأمة الأمية وما كتبته من أحاديث نبيها يفوق بكثير ما كتبت أمم أخرى عن أنبيائهم ، كما فاقت عليها ، في إبان أمرها ، في أمر فتوح البلدان ونشر الدين في القارات

ولا بأس أن نشكك تشكيك سائل ونرتاب في هذا الأمر فلا نقرر إلا مالا مجال لنا لإنكاره . فماذا كتبوا من الاحاديث في أول أمرهم ؟

الحديث المكتوب في العهد النبوي

(أ) لما هاجر المسلمون من أهل مكة إلى المدينة ، وضعوا هناك أساسَ مملكةٍ ودولةَ مدينةٍ (Cité - Etat) وكان قد شاور النبي ﷺ أهاليها وسكانها من المهاجرين والأنصار واليهود وسائر من لم يسلم حينئذ من عرب المدينة ، فسجل دستور دولةٍ — وهو أول دستور مملكة كتب ودوّن في العالم بأجمعه [١] — وذكر فيه حقوق الحاكم والمحكوم عليه وواجباتهما . فبدأ :

« هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس ... » الخ [٢] .

فيقول « هذا كتاب » ، ولا بد أن يكون مكتوباً محرراً . وكرر خمس مرات في نفس الدستور كلمة « أهل هذه الصحيفة » . وقال كذلك « لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم » . وقال « إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة » ؛ ولكن لم يفصل فيه حدود الحرم اليثربي . قال ابن حنبل في مسنده [٣] : « عن رافع بن خديج ... فان المدينة حرمٌ حرّمها رسول الله ﷺ وهو مكتوب عندنا في أديم خولانيّ » . وكان من واجب السياسة أن يحدد حدود المملكة وأرض دولتها فأرسل من يبني أعلام الحدود كما روى المطري في « ما أنست الهُجرة من معالم دار الهجرة » [٤] فقال : « عن كعب

(١) الوثائق السياسية ، رقم ١ ، عن ابن هشام وابي عبيد وغيرهما . راجع مقالتي « اول دستور مسجل في العالم » في تقريرات مؤتمر دائرة المعارف بحيدر آباد .
(٢) الوثائق السياسية رقم ١ .
(٣) ج ٤ ، ص ١٤١ ، رقم الحديث ١٠ .
(٤) مخطوطة مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة .

ابن مالك قال : بعثني رسول الله ﷺ أعلم على أشراف مخيض وعلى الحفيا وعلى ذي العشيرة وعلى تيم» الخ .

(ب) وكذلك أمر النبي ﷺ في أوائل الهجرة باحصاء المسلمين . فقد روى البخاري في صحيحه [١] أن النبي عليه السلام قال : «اكتبوا لي من تلفظ بالاسلام من الناس ؛ فكتبنا له ألفاً وخمس مائة رجل » ذكرانهم وإناثهم وصغارهم وكبارهم . فكان إحصاء النفوس هذا أيضاً مكتوباً . والعدد الذي بلغ بدل أنه كان من السنة الأولى للهجرة .

(ج) بدأت الوثائق السياسية والمعاهدات الرسمية من قبل الهجرة ولا يهمنا ههنا إعطاء حبرون لتميم الداري قبل الهجرة ولا كتاب أمان لسراقة بن مالك المدلجي أثناء سفر الهجرة . ويظهر [٢] أنه كان قد عاهد قبيلة جهينة في السنة الأولى للهجرة ولكن لم يصل إلينا نصه . أما معاهدة بني ضمرة ، فقد عقدت في (صفر سنة ٢) فيما رواه السهيلي [٣] ، ونصها : « هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة » الخ . ومثلها تسلسلت ودامت باقي حياته ﷺ . ومن المعروف كتاب المراوضة [٤] زمن الخندق (سنة ٥) مع بني فزارة وغطفان ، والتحاجج والخلاف على كتابة بعض الكلمات والشرائط في هدنة الحديبية [٥] وكيف أمر النبي عليه السلام الكاتب ، وهو علي بن أبي طالب ، أن يمحو بعض ما كتب . وذكر المؤرخون [٦] في غزوة تبوك أن أكيدر الحيري ،

---

(١) باب كتابة الامام للناس .

(٢) سرية حمزة إلى سيف البحر عند ابن هشام وغيره : « فحجز بينهم مجدي ابن عمر الجهني وكان موادعاً للفريقين » .

(٣) الوثائق السياسية ، رقم ١٥٩ .

(٤) الوثائق السياسية ، رقم ٨ .

(٥) انظر للمراجع ، الوثائق السياسية ، رقم ١١ .

(٦) الوثائق السياسية ، رقم ١٩٠ .

صاحب دومة الجندل ، تعاهد مع المسلمين ؛ وكان النبي عليه السلام ، لما كتب عهده « ختمه بظفره »[١] . وكان من تقاليد أهل الحيرة ، واكيدر منهم ، أن يمضوا معاهداتهم بظفرهم - لا بإبهامهم - فكانوا يختمون بظفرهم فيظهر خط مثل شكل هلال صغير . ونجد هذه العادة هناك من قديم الزمان فبقي أثرها وذكرها في معاهداتهم التي كتبت زمن الجاهلية ، على لبنات الطين وعثرت عليها في الأزمنة الحديثة[٢] .

(د) وكذلك كتبه التبليغية الى قيصر وكسرى والمقوقس والنجاشي وغيرهم لا يعقل الا أن تكون محرَّرة مكتوبة . وقد بقي بعضها الى هذا الزمان مثل كتابه الى المقوقس والنجاشي والمنذر بن ساوى (بحثت فيها في مقالات خاصة[٣]) . وذكر ابن عساكر في تأريخ دمشق[٤] أن أبا العباس عبد الله بن محمد كان قد اشترى معاهدة أيلة من أهلها بثلاث مائة دينار كأثر مبارك من الآثار النبوية .

(ه) وكثيراً ما احتاج النبي عليه السلام أن يكاتب عماله في أنحاء جزيرة العرب ، يبلغهم أوامره . وكذلك كتبوا اليه وسألوه أشياء في معضلات الحوادث فأجابهم بالكتابة . وقد تواتر الذكر في كتب الحديث أن النبي عليه السلام كتب[٥] مسائل الزكاة الى عماله ، وتوفي قبل أن تنفذ اليهم ، فعمل بها الخلفاء بعده .

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٢ ، ص ١٢٠ . وينقله الكتاني (١/١٧٩) أيضاً عن الاصابة في ترجمتي وهب بن أكيدر ، وأكيدر بن عبد الملك .

(٢) Meissner, Babylonien u. Assyrien, I, 179; O. Krückmann, Neue Babylonische Recht - u. Verwaltungstexte, 37/28; Ch . Edwards. The Haummurabi Code, p . 11 .

(٣) بالهندية في تأليفي « رسول أكرم كى سياسى زندكى » . الباب « مكتوبات نبوى كى دو اصول » والباب « مكتوب نبوى بنام نجاشى » .

(٤) الطبعة الجديدة ١/٤٢٠ (تحقيق المنجد) .

(٥) سنن الدارقطني وابي داود والطبراني والداري وكنز العمال وغير ذلك .

والغرض من هذه الأمثلة أنه لا بد أن يكون قد كتب مثل هذه الأحاديث (أو الوثائق الرسمية) في حياته ﷺ فان المطلوب منه لا يحصل الا بالكتابة . وقد جمعت ما وجدته في الكتب ، في تأليفي (الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة) وفيه أكثر من مائتين وخمسين للعهد النبوي خاصة . وقد أضفت اليها اربعين أخرى تقريباً للنشرة الثانية التي تحت الطبع . وهناك أمثلة أخرى من كتابة الحديث .

الكتابة الاتفاقية

روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ خطب خطبة في مكة عام الفتح في حقوق الانسان : « فجاء رجل من أهل اليمن ـ وهو ابوشاه ـ فقال : اكتب لي يا رسول الله . فقال : اكتبوا لأبي فلان . . . قال : كتب لي هذه الخطبة » . (البخاري : باب كتابة العلم) .

وروي عن عِتبان بن مالك الأنصاري أنه سمع يوماً كلاماً للنبي عليه السلام فأعجبه . فكتبه ليحفظه[1] .

نعم هذه حوادث اتفاقية وليس بجميع ما روي مثلها في التأريخ للعهد النبوي .

الكتابة بالجد والاهتمام

(أ) روى الترمذي[2] أن صحابياً من الأنصار حضر الى النبي عليه السلام وشكا سوء حفظه ، وتأسف وتحير كيف يعمل في المواعظ والحكم التي يسمعها كل يوم منه . فقال له : « استعن بيمينك » ، أي اكتب . فلا بد أنْ يكون قد كتب بعد ذلك . ولكن لا نعرف تفاصيل أخرى لهذا .

---

(١) نقله الأستاذ محمد زبير الصديقي ، كأنه عن الاصابة .

(٢) في كتاب العلم كما ذكره زبير الصديقي .

(ب) روي [١] مثله عن عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي . فلما أمره النبي ﷺ أن يكتب ما يشاء ، تعجب وقال : « أكتب كل ما أسمع منك ؟ قال : نعم . قلت : في الرضا والغضب ؟ قال : نعم فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً » . وفي البخاري [٢] عن وهب بن منبه عن أخيه ـ وهو همام ، صاحبنا ـ قال : « سمعت أبا هريرة يقول : ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب . تابعه معمر عن همام عن ابي هريرة » . وكان عبد الله بن عمرو سمى مجموعته هذه « الصحيفة الصادقة » . ويقال إن فيها ألفاً من الأحاديث [٣] . وبقيت في عائلته فكان حفيده عمرو بن شعيب يحدّث على أساسها ويروي أحاديثها [٤] . ورحم الله ابن حنبل فانا نجد هذه الصحيفة محفوظة في ضمن مسنده الجليل ، فصانها من إتلاف الحدثان .

(ج) وكان أبو رافع ، مولى رسول الله وخادمه ، استأذنه أن يكتب أحاديثه فأذن له [٥] .

(د) وأهم من هذا كله أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه . وكان أبواه قد أمراه حين الهجرة ، أن يخدم النبي ﷺ في بيته فبقي لم يفارقه ليلاً ولا نهاراً الى أن توفاه الله بعد عشر سنوات ؛ وعاش أنس بعده طويلاً . وكان رأى وسمع ما لا يتيسر لغيره . وروى الدارمي أن أنساً كان دائماً يعظ بنيه : « يا بَنيّ قيدوا هذا العلم » . وروى الدارمي أيضاً: « رأيت أبان يكتب عند أنس » .

---

(١) ابن سعد ، ابن حنبل ، ترمذي وآخرون .
(٢) باب كتابة العلم .
(٣) زبير الصديقي عن اسد الغابة .
(٤) تهذيب التهذيب لابن حجر ٨/٤٨ — ٥٥ ، رقم ٨٠
(٥) زبير الصديقي عن تهذيب التهذيب ٣/٤٤٠ ابو رافع أو رافع

كيف لا وقد عُني هو بنفسه أن يكتب الحديث أكثر من غيره . فقد روى جماعة مثل الحاكم في المستدرك وغيره ، عن سعيد بن هلال :

« قال : اذا أكثرنا عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فأخرج الينا محالاً عنده ، فقال : هذه سمعتها من النبي ﷺ فكتبتها وعرضتها عليه » .

فكان لا يكتفي أن يكتب ما سمع أو رأى ، بل كان أيضاً يعرضه على صاحبه ﷺ ويصحح اذا مست الحاجة .

فهذه من الحوادث التي نقلت عن الصحابة وهي تدل على أنهم كانوا يكتبون لأنفسهم الحديث النبوي في حياة نبيهم .

تأليف كتاب على يد صحابي

من المعلوم أن عمرو بن حزم رضي الله عنه أرسله النبي عليه السلام عاملاً الى اليمن وكتب له وثيقة عهد فيها عهده وأمره فيها أمره . فحفظ عمرو بن حزم هذه الوثيقة فلم يتلفها ثم جمع واحداً وعشرين كتاباً كتبها النبي ﷺ ليهود بني عاديا وبني عريض ، لتميم الدارمي ، لجهينة وجذام وطيء وثقيف وغيرهم . فضمها في تأليف فكان أول مجموعة للوثائق السياسية الاسلامية للعهد النبوي . وقد رواها عنه ابو جعفر الدينلي (الباكستاني) من محدثي القرن الثالث للهجرة . ونقله ابن طولون ذيلاً لتأليفه « إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين » (مخطوطة بخط المؤلف في خزانه المجمع العلمي بدمشق ، وقد طبع بعدُ) .

تدوين الحديث في عهد الصحابة

وفي المصادر روايات كثيرة عن الصحابة تدل على أنهم كتبوا الأحاديث بأيديهم أو أملوها على تلامذتهم . ولو أن هذا حدث بعد وفاة النبي فان شاهدي الوقائع أنفسهم لم يحل جيل بينهم وبين تدوين ما وعوا وما حفظوا .

(أ) فروى الامام مسلم [١] في صحيحه أن جابراً رضي الله عنه ألّف كتاباً في الحج ـ لعله اشتمل على ذكر حجة الوداع وأحاديث أخرى وردت في مسائل الحج ـ وكانت له حلقة درس في المسجد النبوي ، فكتب وهب بن منبه ، صاحب التصانيف التأريخية ، أحاديثه من املائه [٢] . وروى البخاري [٣] عن قتادة ، التابعي الشهير ، أنه قال : « لأنا بصحيفة جابر أحفظ مني من سورة البقرة » . وكذلك يروى عن تلميذ آخر له ، وهو سلمان بن قيس اليشكري ، أنه كتب ماروى جابر من الأحاديث [٤] . وقد درس على جابر آخرون وكتبوا عنه صحيفته ورووا عنه [٥] .

(ب) كانت أم المؤمنين عائشة تقرأ ولا تكتب . وروي أن ابن اختها (عروة بن الزبير) صنّف ما قد حوى روايات عائشة وغيرها وقد ضاع كتابه زمن فتنة الحرة فكان يقول فيما بعد : « لوددت أن كنت فديتها بأهلي ومالي » [٦] . ولعائشة الصديقة تلامذة آخرون . منهم عمرة بنت عبد الرحمن ، كانت قد ربتها من طفولتها . نحن لا نعرف هل كتبت عمرة شيئاً بيدها أم لا ، ولكن كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز الى عامله في المدينة ابي بكر بن محمد بن عمر بن حزم ـ وكان ابن اخت عمرة ـ « أن يكتب له من العلم ما عند عمرة بنت عبد الرحمن والقاسم بن محمد » [٧] . وكان القاسم هذا ، ابن اخي عائشة الصديقة ، وكان

---

(١) نقله الأستاذ مناظر أحسن كيلاني . « تدوين حديث » ١٠١/١ .
(٢) تهذيب التهذيب ، ترجمة وهب .
(٣) التاريخ الكبير للبخاري ١٨٢/٤ .
(٤) تهذيب التهذيب ٢١٥/٤ ، رقم ٣٦٩ .
(٥) المصدر السابق ، وايضاً مناظر احسن ١٠١/١ .
(٦) تهذيب التهذيب ١٨٣/٧ ، رقم ٣٠١ .
(٧) نقله مناظر أحسن عن ابن حجر والبخاري .

يتيماً فحضنته وربته وكان من كبار العلماء . « وعن أبي عيينة : كان أعلم الناس بحديث عائشة : عروة وعمرة والقاسم »[١] .

(ج) ويروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه جمع أحاديث النبي عليه السلام في كتاب وقد بلغ عددها خمسمائة حديث . ثم أتلفه خشية أن يكون كتب شيئاً لم يكن حفظه تماماً[٢] .

(د) سأل ابو جحيفة ، علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : « قلت لعليّ : هل عندكم كتاب ؟ قال : لا إلا كتاب الله أو فَهْمٌ أُعطيه رجل مسلم وما في هذه الصحيفة . قال ، قلت : فما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر »[٣] . يريد بالعقل ، المعاقل والديات . ولعله أراد دستور المدينة الذي كتبه النبي عليه السلام في السنة الأولى للهجرة[٤] ، وأكثره يتعلق بالمعاقل . والله أعلم .

(ه) أما عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه فكان أيضاً يكتب الأحاديث . ويظهر أنه كان يدرّس بالمكاتبة كما نرى في عدة أبواب من صحيح البخاري : فقد روي عن موسى بن عقبة ، صاحب المغازي الشهيرة ، « عن سالم ابي النضر مولى عمر بن عبيد الله ، وكان كاتباً له ، أن عبد الله بن ابي أوفى كتب فقرأته ـ وفي رواية : كتب اليه عبد الله بن ابي أوفى حين خرج الى الحرورية فقرأته فاذا فيه ـ أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ، انتظر حتى مالت الشمس ، ثم قام في الناس فقال : أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية . فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

---

(١) تهذيب التهذيب ١٨٢/٧ .
(٢) نقله زبير الصديقي عن طبقات الحفاظ ٥/٢ .
(٣) صحيح البخاري باب كتابة العلم ، وباب فكاك الأسير .
(٤) الوثائق السياسية رقم ١ .

ثم قال : اللهم مُنزل الكتاب ، ومُجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم »[١] .

(و) وكان سَمُرة بن جندب رضي الله عنه جمع أحاديث فورثه ابنه سليمان بن سمرة . وفي لفظ ابن حجر : « روى عن أبيه نسخة كبيرة »[٢] . « وقال ابن سيرين : في رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير »[٣] .

(ز) أما سعد بن عبادة الأنصاري ، فكان « كاملاً » من كتّاب أهل الجاهلية[٤] . وكان عنده صحيفة جمع فيها الأحاديث النبوية . وكان ابنه يروي منها[٥] .

(ح) لا ندري اذا كان ابن عمر رضي الله عنهما كتب الأحاديث بنفسه ولكن نجد رواية سلمان بن موسى في طبقات ابن سعد « أنه رأى نافعاً مولى ابن عمر يملي عليه ويكتب بين يديه » . إن نافعاً كان من كبار العلماء وأرشد تلامذة ابن عمر ، الذي صحبه ثلاثين سنة . ولا بد أن يكون قد حوى جميع علم استاذه الجليل فقد كان ابن عمر يقول : « لقد منّ الله علينا بنافع »[٦] .

(ط) أما ابن عباس رضي الله عنه ، فهو أشهر من ان نحتاج الى تفصيل حياته العلمية . فقد تواتر عنه أنه لما توفي ، ترك حمل بعير من تصانيفه . وروى الترمذي[٧] عنه عن مولاه وتلميذه عكرمة « أن نفراً قدموا على ابن عباس

---

(١) صحيح البخاري باب لا تمنوا لقاء العدو ، وباب اذا لم يقاتل اول النهار ، وباب الصبر عند القتال .
(٢) تهذيب التهذيب ١٩٨/٤ .
(٣) تهذيب التهذيب ٢٣٦/٤ ، رقم ٤٠١ .
(٤) تهذيب التهذيب ٤٥٧/٣ ، رقم ٨٨٣ .
(٥) الترمذي في كتاب الأحكام ، ذكره مناظر أحسن .
(٦) تهذيب التهذيب ٤١٣/١٠ ، رقم ٧٤٢ .
(٧) في كتاب العلل ، ذكره مناظر أحسن .

من أهل الطائف يكتب من كتبه فجعل يقرأ عليهم » . وروى الدارمي وابن سعد وغيرهما عن تلميذ آخر له ـ وهو سعيد بن جبير ـ أنه كان يكتب ما يملي عليه ابن عباس رضي الله عنهما من الأحاديث . فاذا نفد القرطاس احياناً أثناء كتابته ، كتب على لباسه ونعله حتى على كفه ، ثم نقله في الصحف اذا رجع الى بيته . فلما توفي سيدنا ابن عباس ، ورث كتبه ابنه علي ، فبقي علمه بعده وتسلسل .

صحابة آخرون

(ي) كتب الأستاذ عبد الصمد صارم في تأليفه بالهندية « عرض الأنوار المعروف بتأريخ القرآن » (طبع دهلي ١٣٥٩ هـ) بعض ما يتعلق ببحثنا [١] . فنقل عن الجامع الصغير أن الأحاديث التي كان جمعها عبد الله بن مسعود كانت عند ابنه ، ورأى ذكر كتاب سعد بن عبادة في مسند ابن حنبل ؛ ونقل عن أسد الغابة أن سعد بن الربيع بن عمرو بن ابي زهير الأنصاري جمع بعض الأحاديث ؛ وعن تهذيب التهذيب لعبد الله بن ربيعة بن مرثد ؛ وعن البيهقي أن النبي ﷺ كتب لسيدنا ابي بكر الصديق احكام الحج (كأنه في السنة التاسعة للهجرة) ؛ الى غير ذلك .

أبو هريرة

(ك) أما ابو هريرة الدوسي اليمني رضي الله عنه ، فقد قال البخاري : « روى عنه نحو من ثمانمائة رجل أو أكثر من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم » [٢] وبقال إنه سمي أبا هريرة لجودة حفظه كما أن الهرة لا تنسى ماعرفت من الأمكنة . وروى البخاري في صحيحه [٣] : « عن ابي هريرة ، قال : إن الناس يقولون :

---

(١) راجع ص ١٧٣ وما بعده . مع الاسف لم اجد فرصة كي أرجع الى الاصول التي ذكرها وأحقق رقم الجلد والصفحات .

(٢) تهذيب التهذيب ٢٦٥/١٢ ، رقم ١٢١٦ .

(٣) باب حفظ العلم .

أكثر ابوهريرة ، ولولا آيتان في كتاب الله ، ما حدّثت حديثاً . ثم يتلو : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات) إلى قوله (الرحيم) . إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم ، وإن ابا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه يحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون » .

فما روي من جودة حفظه أن مروان بن الحكم امتحنه مرة فطلبه فجاء . وكان مروان أمر كاتباً أن يجلس وراء الستر . فطفق مروان يسأل ابا هريرة ، فيحدث عما علم . ويقول الكاتب : « فجعل يسأل وانا أكتب حديثاً كثيراً » . ولم يشعر ابوهريرة رضي الله عنه ما وقع وراء الستر ؛ فراح . ثم طلبه مروان مرة اخرى . ويقول الكاتب : « فتركه سنة ثم أرسل في طلبه وأجلسني وراء الستر فجعل يسأل وأنا أنظر في الكتاب . فما زاد ولا نقص »[1] . فيدل هذا لا على جودة حفظ ابي هريرة فحسب ، بل أيضاً على ان عدداً من رواياته كانت قد كتبت وقوبلت عليها بأمر مروان .

وروي أن أبا هريرة أرى ابن وهب مرة كتبه[2] . وروى الدارمي تدويناً آخر لروايات ابي هريرة فقال : « عن بشير بن نهيك ، قال : كنت اكتب ما أسمع من ابي هريرة . فلما أردت أن أفارقه ، أتيته بكتابه ، فقرأته عليه وقلت له : هذا ما سمعت منك . قال : نعم » .

وروى ابن عبد البر ما يكاد يتعلق بأواخر عمر ابي هريرة ، فروى عن ابن لعمرو بن أمية الضمري ، قال :

---

(١) كتاب الكنى للبخاري ص ٣٣ ، ذكره مناظر أحسن .
(٢) فتح الباري ١/١٨٤ ، ذكره زبير الصديقي .

« تحدثت عن ابي هريرة بحديث . فأنكر . فقلت : إني قد سمعته منك . فقال : إن كنتَ سمعته مني فهو مكتوب عندي . فأخذ بيدي الى بيته فأرانا كتباً كثيرة من حديث رسول الله ﷺ فوجد ذلك الحديث . فقال : قد أخبرتك : ان كنتُ حدثتك به فهو مكتوب عندي » . (جامع بيان العلم ١/٧٤) . ولأبي هريرة رضي الله عنه تلامذة آخرون . منهم همّام بن منبّه صاحب الصحيفة التي نحن بصددها . وهي من أقدم ما دوّن في الحديث ، وحفظته لنا خزائن الكتب .

همّام بن منبّه

قال ابن حجر في تهذيب التهذيب [1] ما نصه : « همّام بن منبّه بن كامل بن شيخ اليماني ابو عقبة الصنعاني الأبناوي ـ [والأبناء هم أهل فارس توطنوا قبل الاسلام في بلاد اليمن بعدما فتحها كسرى] ـ روى عن ابي هريرة ، ومعاوية ، وابن عباس ، وابن عمر ، والزبير ، وعنه أخوه وهب بن منبه ، وابن اخيه عقيل ابن معقل بن منبه ، وعلي بن الحسن بن آتش ، ومعمر بن راشد . قال اسحاق ابن منصور عن ابن معين : ثقة . وذكره ابن حبّان في الثقات . وقال الميموني عن احمد : كان يغزو ، وكان يشتري الكتب لأخيه وهب . فجالس ابا هريرة فسمع منه أحاديث وهي نحو من أربعين ومائة حديث بإسناد واحد . وأدركه معمر ، وقد كبر وسقط حاجباه على عينيه ، فقرأ عليه همام ، حتى اذا ملّ ، أخذ معمر فقرأ الباقي . وكان عبد الرزاق لا يعرف ما قرئ عليه مما قرأ هو . قال ابن سعد : مات احدى وثلاثين ـ (أي بعد المائة) ـ وقال البخاري : قال علي : سألت رجلاً قد لقي همام بن منبه : متى مات همام ؟ فقال : مات سنة اثنتين . قال ، وقال ابن عيينة : كنت أتوقع قدوم همام عشر سنين . قلت :

---

(١) ١١/٦٧ ، رقم ١٠٦ (راجع أيضاً ١/٥٧٤) .

وقال ابن سعد [١] ، والخليفة وابن حبان : مات سنة إحدى أو اثنتين وثلاثين . وقال العجلي : يماني ، تابعي ، ثقة » . انتهى ما قال ابن حجر العسقلاني .

وقال صاحب كشف الظنون : « الصحيفة الصحيحة للشيخ همام بن منبه الصنعاني المتوفى سنة ١٣١ . وهي التي كتبها عن ابي هريرة » .

فكان همام قد جالس ابا هريرة مدة ، وسمع منه أحاديث وكتبها في مجموعة سماها « الصحيفة الصحيحة » على ما روي في كشف الظنون ، كأن هذا على مثال « الصحيفة الصادقة » لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما . فصحيفة همام ، رواها تلميذه معمر عنه . ثم عبد الرزاق عن معمر . ثم هلم جرا . وعلى هذا تكون هذه الصحيفة قد دونت في أواسط القرن الأول للهجرة ، لأن أبا هريرة توفي سنة ٥٨ هـ .

وقد نقلها ابن حنبل في مسنده (ج ٢ ص ٣١٢ ـ ٣١٩) بتمامها . ونقل البخاري عدداً كثيراً من أحاديثها في صحيحه ، في أبواب شتى [٢] . سوى ما تواتر رواية هذه الصحيفة على حدة نسلاً بعد نسل . وقد عثرنا على مخطوطتين منها ، تحتويان على إسنادين مختلفين . سنفصل ذكرهما فيما سيأتي :

لا يمكن مقابلة الصحيفة بما نقل منها البخاري في صحيحه فانه فرّق أحاديثها في أبواب متفرقة . أما ابن حنبل فنقلها برمتها كما هي . فاذا قابلنا الباب المتعلق من مسند ابن حنبل مع المخطوطتين لدينا ، وجدنا الفروق الآتية :

١) يتفق المسند مع المخطوطتين ولا يختلف في ترتيب الأحاديث إلا مرتين أو ثلاث . وهذا بلا زيادة كلمات ولا نقصانها . (راجع الصحيفة في الأحاديث رقم ١٣ ، ٩٣ ، ١٢٦ ، ١٣٨) .

---

(١) راجع طبقات ابن سعد ٥/٣٩٦ .

(٢) جلد اول ، ص ٣٤ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٩١ ، جلد رابع ٥٦ ، ٦٣ ، ٨٦ الى غير ذلك (من طبع مصر ١٣١٣ هـ) .